

ندوة إذاعية - إذاعة دمشق - صور من حياة التابعين - الدرس ١١ : التابعي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٠-٢٠١٢-٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يسعدنا في هذه الحلقة أن نستضيف فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي الأستاذ المحاضر في كلية التربية في جامعة دمشق، و المدرس الديني في مساجد دمشق، و خطيب جامع العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي بدمشق، فضيلة الشيخ السلام عليكم و رحمة الله تعالى وبركاته.

و عليكم السلام و رحمة الله و برkatte.

قال سيدنا محمد بن علي بن الحسين: أما علمت أن لكل قوم نجياً وأن نجيببني أمية عمر بن عبد العزيز وأنه يبعث يوم القيمة أمة وحده، الشخصية فضيلة الشيخ محمد راتب النابلسي التي هي بين أيدينا الآن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حبذا لو سمحتم أن نلتقي لنضيف في هذه الشخصية .

أستاذ جمال: بعد أن تسلم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز زمام الخلافة وكان قد بذل جهداً كبيراً أراد أن يأوي إلى موضعه قليلاً فما أن أسلم جنبه إلى موضعه حتى أقبل عليه ابن عبد الملك وكان يومئذ فتىً في السابعة عشر من عمره .

قال: ماذا تريد أن تصنع يا أمير المؤمنين؟ قال: أيبني أريد أن أغفو قليلاً فلم تبق في جسدي طاقة، فقال: أتغفو قبل أن ترد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين؟ قال: أيبني إني قد سهرت البارحة في عملك سليمان وإنني إذا حان الظهر صلبت في الناس ورددت المظالم إلى أهلها إن شاء الله. فقال: ومن لك يا أمير المؤمنين أن تعيش إلى الظهر. فألهبت هذه الكلمة عزيمة عمر وأطارت النوم من عينيه وبعثت القوة والعزم في جسده المتعب وقال: ادن مني أيبني فدنا منه فضمته إليه وقبل ما بين عينيه وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني، ثم قام وأمر أن ينادي بالناس ألا من كانت له مظلمة فليرفعها.

فمن عبد الملك هذا؟ ما خبر هذا الفتى الذي قال عنه الناس: إنه هو الذي أدخل آباء في العبادة وسلكه مسلك الزهد؟

تعالوا بنا إليها الإخوة الكرام نلم بقصة هذا الفتى الصالح من أولها.

كان لعمر بن عبد العزيز خمس عشرة ولداً فيهم ثلات بنات وكانوا جميعاً على حظ موفور من التقوى ومقام كبير من الصلاح، لكن عبد الملك كان واسطة العقد وكان كوكب أخوته المتألق فقد كان أدبياً أربياً سن الفتى وعقل الكهول، ثم إنه نشأ في طاعة الله عز وجل منذ نعومة أظفاره

فكان أقرب الناس سمتاً إلى آل الخطاب عاماً وأشبههم بعد الله بن عمر خاصةً في نقاوه الله عز وجل وتخوفه من معاصيه.

حدث ابن عمه عاصم قال: وفدت على دمشق فنزلت على ابن عمي عبد الملك وهو عزب فصلينا العشاء فآوى كل منا إلى فراشه فقام عبد الله إلى المصباح فأطفاء وأسلم كل منا جفنيه إلى الكري ثم إني استيقظت في جوف الليل فإذا عبد الملك قائم يصلي في العتمة وهو يقرأ قوله عز وجل، دقة في هذه الآية:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعَنُونَ (٢٠٧)﴾

[سورة الشعراء: الآية ٢٠٧-٢٠٥]

فما راعني منه إلا أنه كاد يردد الآية وينشج نشيجاً مكبوتاً يقطع نياط القلب وكان كلما فرغ من الآية عاد إليها حتى قلت سيفته البكاء فلما رأيت ذلك قلت لا إله إلا الله والحمد لله كما يفعل المستيقظ من النوم لأقطع عليه البكاء فلما سمعني سكت فلم أسمع له حس.

تتلذذ هذا الفتى العمري على أكبر علماء عصره حتى تملئ من كتاب الله تعالى وتضلع بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقنه في الدين فبدا على حداثة سنه يحازم الطبقة الأولى من فقهاء أهل الشام في زمانه، فقد روي أن عمر بن عبد العزيز جمع قراء الشام وفقهاءها وقال: إني قد دعوكم لأمر هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي فيما ترون فيها؟ قالوا يا أمير المؤمنين إن ذلك أمر كان في غير ولايتك وإن وزر هذه المظالم على من غصبها، فلم يرتاح إلى ما قالوا، فالتفت إليه أحدهم من كان يرى رأياً غير رأيهم وقال: ابعث يا أمير المؤمنين إلى عبد الملك فإنه ليس بدون من دعوت علمأً أو فقهاً أو عقلاً، ابعث لابنك عبد الملك.

فلما دخل عليه عبد الملك، قال له عمر: ما ترى في هذه الأموال التي أخذها بنو عمنا من الناس ظلماً وقد حضر أصحابها وجعلوا يطلبونها وقد عرفنا حقهم فيها؟ فقال: أرى أن تردها إلى أصحابها مادمت قد عرفت أمرها وإنك إن لم تفعل كنت شريكاً للذين أخذوها ظلماً. فانبسطت أسارير عمر وارتاحت نفسه وزال عنه ما غمه.

هذا الفتى العمري آثر المرابطة على ثبور المسلمين – شأن كبار الصحابة والتابعين – والإقامة في إحدى المدن القريبة منها، على البقاء في بلاد الشام فمضى إليها وخلف وراءه دمشق ذات الرياض النضرة والظلال الظليلة والأنهار السبعة، وكان أبوه على الرغم من كل ما عرفه من صلاحه وتقاه شديد الخوف عليه من نزعات الشيطان، كثير الإشراق عليه من نزوات الشباب، حريصاً على أن يعلم من أمره كل ما يجوز أن يعلم وكان لا يغفل عن ذلك أبداً ولا يغفله. حدث ميمون بن مهران وزير عمر بن عبد العزيز وقاضيه ومستشاره قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز فوجده يكتب رسالة إلى ابنه عبد الملك يعظه فيها وينصحه ويبيصره ويهذره وكان مما جاء فيها قوله: أما بعد فإن أحق من وعي عنى وفهم قوله لأنـت وإنـ الله ولـه الحمد قد أحـسن

إلينا في صغير الأمر وكبيره فاذكر يابني فضل الله عليك وعلى والديك وإياك والكبير والعظمة فإنها من عمل الشيطان وهو للمؤمن عدواً مبيناً و اعلم أني لم أبعث لك كتابي هذا بأمر بلغني عنك فما عرفت عنك إلا خيراً غير أنه بلغني عنك شيء من إعجابك لنفسك ولو أن هذا الإعجاب خرج بك إلا ما أكره لرأيت مني ما تكره قال ميمون: ثم التفت إلى عمر وقال: يا ميمون إن ابني عبد الملك قد زين في عيني وإنني اتهم نفسي في ذلك وأخاف أن يكون حبي له قد غالب على علمي به وأدركني ما يدرك الآباء من العمى عن عيوب أولادهم فسر إليه واسبر غوره وانظر هل ترى فيه ما يشبه الكبر والفاخر فإنه غلام حدث ولا آمن عليه الشيطان.

قال ميمون: فشدّدت الرحال إلى عبد الملك حتى قدمت عليه فاستأذنت ودخلت فإذا غلام في مقتبل العمر، ريان الشباب، بهي الطلعة جم التواضع، قد جلس على حشية بيضاء فرحب بي ثم قال: لقد سمعت أبي يذكرك بما أنت أهل له من الخير وإنني لأرجو أن ينفع الله بك فقلت له: كيف تجد نفسك؟ قال: بخير من الله عز وجل ونعمته غير أني أخشى قد غرني حسن ظن والدي بي وأنما لم أبلغ من الفضل كل ما يظن وإنني لأخاف أن يكون حبه لي قد غلبه على معرفته بي فأكون آفة عليه، فعجبت من اتفاقهما، ثم قلت له: أعلمني من أين معيشتك فقال: من غلة أرض اشتريتها منمن ورثها عن أبيه ودفعت ثمنها من مال لا شبهة فيه فاستغنى بذلك عن فيه المسلمين، قلت: وما طعامك؟ قال: ليلة لحم، وليلة عدس وزيت، وليلة خل وزيت، وفي هذا بлаг، قلت له: أما تعجبك نفسك؟ فقال: كان في شيء من ذلك فلما وعظني أبي بصرني بحقيقة نفسي وصغرها عندي وحط من قدرها في عيني ففجعني الله عز وجل بذلك فجزاه الله من والد خيراً. فقعدت ساعةً أحدثه وأستمع بمنطقه فلم أرْ فتىً كان أجمل وجهاً ولا أكمل عقلاً ولا أحسن أدباً منه على حداثة سنـه وقلة تجربته، فلما كان آخر النهار أتاه غلاماً والآن ددق أخ جمال. فقال: أصلحك الله قد فرغنا فسكت، فقلت: ما هذا الذي فرغوا منه؟ قال: الحمام قلت: وكيف؟ قال: أخلوه لي من الناس، فقلت: لقد كنت وقعت من نفسي موقعاً عظيماً حتى سمعت هذا. يعني أخل له الحمام وحده، فذعر واسترجع وقال: وما في ذلك يا عم يرحمك الله فقال: الحمام لك! قال: لا، قال: مما دعاك إلى أن تخرج الناس منه كأنك تريد بذلك أن ترفع نفسك فوقهم وأن يجعل لها قدرًا يعلو على أقدارهم، ثم إنك تؤذي صاحب الحمام في غلة يومه وترجع من أتى حمامه خائباً، قال: أما صاحب الحمام فأنا أرضيه وأعطيه غلة يومه، قلت هذه نفقة فيها إسراف ومعها كبر وما يمنعك أن تدخل الحمام مع الناس وأنت كأحدهم.

قال: يمنعني من ذلك أن طائفه من رعاع الناس يدخلون الحمام بغير أزر أكره أن أرى عوراتهم وأكره أن أجبرهم على وضع الأزر فأخذوا ذلك على أنه اقتدار مني عليهم بالسلطان الذي أسأل الله أن يخلصنا منه كفافاً لا لنا ولا علينا، فعظني رحمك الله عظةً أنتفع بها واجعل لي مخرجاً من هذا الأمر. فقلت: انتظر حتى يخرج الناس من الحمام ليلاً ويعودوا إلى بيوتهم ثم ادخله أنت، قال: لا جرم لا أدخله نهاراً أبداً بعد الآن ولو لا شدة برد هذه البلاد ما دخلته أبداً

وأطرق قليلاً كأنه يفكر في ذلك، ثم رفع رأسه إلى وقال: أقسمت عليك لتطوين هذا الخبر عن أبي فإني أكره أن يظل ساخطاً علي، ما هذا الأدب، وإنني لأخشى أن يحول الأجل دون الرضا منه.

قال ميمون: فأردت عند ذلك أن أسير عقله فقلت له: إن سألني أمير المؤمنين هل رأيت منك شيئاً فهل ترضى لي أن أكذب عليه؟ قال: لا معاذ الله ولكن قل له رأيت منه شيئاً فوعظه وكبرته في عينه فسارع إلى الرجوع عنه فإن أبي لا يسألك عن كشف ما لم تظهره له لأن الله جل وعز قد أعاذه من البحث عن ستر.

قال ميمون: فلم أرَ والدَّاً قط ولا ولداً مثهما يرحمها الله عز وجل.
رحم الله عز وجل سيدنا عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز التابعي الجليل وأهلاً ومرحباً
بسماحة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي نشكركم سماحة الشيخ

والحمد لله رب العالمين